

المرأة والشرف : حريم البلاط العباسي نموذجاً (132 هـ / 749 م - 247 هـ 861 م)

أسماء عمارة*

المقدمة

لقد مثلّ تولي أبناء الجواري الحكم في العصر العباسي نقطة تحول هامة في التاريخ الإسلامي. فبعد أن كان بنو أمية حتى عهد يزيد بن الوليد بن عبد الملك لا يستخلفون إلاّ أولاد الحرائر من أبنائهم لم يعد في العصر العباسي من الخلفاء من أمه حرّة سوى السفاح، المهدي والأمين.

وقد دفعت هذه الظاهرة بعض الباحثين ولا سيما المستشرقين منهم إلى اعتبار أنّ الخلفاء العباسيين لا يهتمون بالأورمة والنسب فيما يتعلق بنسائهم.¹ والحديث عن الخليفة العباسي بكونه لا يتزوج عريبات بل يغرف ما يشاء مما ملكته يمينه من الجواري والإماء.² كما تحدّث البعض الآخر عن تراجع مكانة النساء المهائز أو الحرائر في العصر العباسي واللاتي أقصين عن دائرة الحب مقارنة بالسراري أو الحظايا.³

وقد دفعتنا مجمل هذه الآراء إلى البحث في قضية هامة تتعلّق بمسألة الشرف والمرأة في العصر العباسي وذلك انطلاقاً من حريم الخلفاء العباسيين. فهل أن وصول أبناء الجواري إلى الحكم يعود إلى تراجع دور الشرف والنسب الأمومي في العصر العباسي أم أنه يعود إلى تحولات وتطورات أخرى شهدتها ذلك العصر؟ هذا ما سنحاول النظر فيه من خلال إبراز حظ كل من الحرائر والإماء في الحرم العباسي ثم البحث عن دور الشرف في تحديد مكانة المرأة في البلاط العباسي؟

* باحثة تعدّ رسالة الدكتوراه.

1- فلهوزن (يوليوس)، تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، القاهرة 1968، ص 530.

2- كاهن (كلود)، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية من ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، بيروت 1983، ص 63.

3- Algazi (G.) et Drory (R.), «L'amour à la cour des abbasides, un code de compétence sociale», *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, n° 1, février 2001, p. 1272.

II- الحرم العباسي : ظهوره وتطوره

تقتضي منّا دراسة الشرف والمرأة انطلاقاً من حريم البلاط العباسي أولاً التعريف بكلمة "حريم" ثم دراسة التطور التاريخي للظاهرة وصولاً إلى العصر العباسي.

فالحريم لغة هو جمع "حرم" وهو الشيء المحرّم أي الذي لا يجوز مسّه ولا الدنو منه. ويقال حريم الدار أي ما دخل فيها. مما يغلق عليه بابها أمّا ما خرج منها فهو الفناء.⁴ وتطلق الكلمة بصفة خاصّة على الفضاء المخصّص داخل الدار أو القصر للنساء وعادة ما تكون شققاً ولا يجوز إلاّ لسيد الدار وبعض الأقارب والخدم الذين يكونون عادة من الخصيان الدخول إليها.⁵

كما أن نفس الكلمة "حريم" تطلق أيضاً على نساء الرجل الواحد فيقال حرم الرجل وحريمه أي ما يقاتل عنه ويحميه، نسائه وعياله،⁶ وليس المقصود بنسائه فقط زوجاته وجواريه بل كذلك أمه وبناته وكل من تربطهن به علاقة قرابة.⁷

هذا فيما يخصّ المعنى اللّغوي لكلمة حريم. أما عن الأصل التاريخي للظاهرة فيبدو أن عادة عزل الحريم التي كانت منتشرة عند الفرس منذ أقدم الأزمنة لم تكن موجودة عند العرب قبل الإسلام حيث يذكر الجاحظ " فلم يكن بين رجال العرب ونسائهن حجاب " ويذكر " فلم يزل الرجال يتحدّثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على أزواج محمد " ⁸. ثم ولئن أقرّ الإسلام الحجاب على نساء محمد فليس لغاية عزلهن بل لغاية تميّزهن بحكم مرتبتهن الاجتماعية فهو اقتباس حضاري يستند إلى تقاليد أرستقراطية.⁹

4- ابن منظور، لسان العرب، بيروت 1997، ج 2، ص 66.

5- Sourdel (D.) et (J.), « Harem », in *Dictionnaire historique de l'islam*, p. 337 ; Réd, SV "Harim", E.I, t. 3, p. 214.

6- ابن منظور، نفس المصدر، ج 2، ص 66.

7- Sourdel (D.) et (J.), « Harem », *op.cit.*, p. 337.

8- الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج 2، القاهرة 1979، ص 138 - 139 ؛ الأطرقي (واحدة)، المرأة في أدب العصر العباسي، العراق 1981، ص 36-37.

9- Lecerf (J.) «Note sur la famille dans le monde arabe et islamique», ARABICA, t. III, -9 janvier 1956, p. 57.

ولم تنتشر ظاهرة عزل الحريم في العالم الإسلامي إلا في أواخر العهد الأموي وبالتحديد في عهد الوليد الثاني وذلك نتيجة للتحويلات الجديدة التي طرأت على المجتمع الإسلامي أهمّها التدخّل الأجنبي وتدفع القيان والجواري وانتشار حياة البذخ والترف مما أدّى إلى اتخاذ مواقف جديدة تجاه المرأة الحرّة تمثلت خاصة في عزلها وحجبها عن المجتمع.¹⁰ أي تحديد وظائفها وعزلها داخل عالم جديد كلّه نسائي.

وقد أخذ العباسيون عادة عزل الحريم عن أواخر الأمويين فشدّدوا في حجب وصون نسائهم حتّى أن الخليفة المنصور كان يعتبر أن التعرّض للحرم من الأشياء التي لا يمكن أن تحتملها الملوك مثل إفساء السرّ والقدح في الملك.¹¹ كما اتخذ العباسيون الحجاب والأقفال والأبواب وشدّدوا في حراسة نسائهم.¹²

ولم يقتصر الحجب على الحرائر فحسب بل تعداه إلى الجواري فكان الخروج ممنوعا على حريم الخلفاء إلا على القهرمانات لقضاء الحاجات.¹³ وكان يتولّى خدمة حريم الخلفاء الخدم من الخصيان فلم يسمح المنصور لعربي أن يكون خادما عند حرمه.¹⁴

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن درجة عزل الحريم في العصر العباسي الأول كانت تختلف من خليفة إلى آخر فهناك من الخلفاء من شدّدوا الحصار على نسائهم خاصة الرشيد فهو من كان يستعمل الأقفال.¹⁵ ومن الخلفاء من تميز بتحرره تجاه المرأة وأذكر هنا خاصة المهدي فهو من الخلفاء الذين حرّروا المرأة من الحصر والقصر.¹⁶

وقد شهد الحرم العباسي تطورا تدريجيا وملحوظا خلال العصر العباسي الأول ففي عهد الخليفة أبي العباس السفاح لم يكن الحرم العباسي كبير الحجم

10- الأطرقي (واحدة)، نفس المرجع، ص 36.

11- السيوطي، تاريخ الخلفاء، بغداد 1984، ص 245.

12- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت 1988، ج 3، ص 386.

13- التلخوي، نشوار المحاضرة، بيروت 1972، ج 4، ص 183؛ الأطرقي (واحدة)، نفس

المرجع، ص 39.

14- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 8، بيروت 1967، ص 99.

15- المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 386.

16- جواد (مصطفى)، سيّدات البلاط العباسي، بيروت 1950، ص 27.

فهو يتركب عموماً من زوجة واحدة وهي أم سلمة بنت يعقوب المخزومية والتي تعد أولى سيّدات البلاط العباسي.¹⁷ وبنت واحدة وهي ربيعة.¹⁸ ويعود ذلك إلى شخصية السفاح الذي ابتعد عن النساء ولم يكن يحب إلا مسامرة الرجال.¹⁹

كذلك في بداية خلافة المنصور لم يكن الحرم العباسي كبير الحجم حيث تذكر المصادر أنه تزوج أم موسى الحميرية فاشترطت عليه ألا يتزوج عليها ولا يتسرّى في حياتها وكتبت عليه بذلك كتاباً فبقي على تلك الحالة حتى وفاتها بعد عشر سنين من خلافته فأهديت إليه مائة بكر.²⁰ وبدأ الحرم العباسي منذ ذلك الحين في الاتساع تدريجياً وخاصة مع الخليفة المهدي الذي عرف بميله للنساء حتى وصل في عهد الخليفة الرشيد إلى ألفي جارية.²¹ وبلغ الحرم العباسي أقصاه في عهد الخليفة المتوكل حيث تذكر المصادر أنه كانت له أربعة آلاف سريّة.²²

ومما لا شك فيه أن تكاثف حجم الحريم أدى حتماً إلى شساعة " الحرم " أي شساعة الفضاء المخصص للنساء من القصر. وقد كان لكل سيدة من سيّدات البلاط العباسي جناح خاص بها يعرف بالمقصورة.²³ وهي تختلف في حجمها وتهيئتها حسب مكانة المرأة في البلاط بقطع النظر إن كانت أمة أم حرة. فقد كان للخيزران زوجة الخليفة المهدي وأم الخليفة الهادي والرشيد دار تعرف بـ "أشناس".²⁴ ومن نساء البلاط العباسي من امتلكت قصراً وأذكر هنا خاصة زبيدة زوجة الخليفة الرشيد فقد كان لها قصراً يعرف بقصر " القرار ".²⁵ وامتلك بوران زوجة الخليفة المأمون القصر المسمى بالحسني.²⁶ وكان لأسماء بنت الخليفة المنصور قصراً يعرف بقصر أسماء في الجانب الشرقي

17- المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 261 ؛ جواد (مصطفى)، نفس المرجع، ص 6.

18- الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك، بغداد، 1964، ص 59.

19- المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 261.

20- الجاحظ، المحاسن والأضداد، القاهرة 1912، ص 117.

21- الأصبهاني، الأغاني، ج 10، بيروت، 1959، ص 182.

22- المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 122.

23- المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 323-324.

24- المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 323.

25- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، القاهرة 1931 ج 1، ص 87.

26- المصدر السابق، ج 1، ص 99.

من المدينة المدورة، كما ذكر لنا الخطيب البغدادي " دار البانوقة" و " دار العباسة" وهما إحدى بنات المهدي.²⁷

ولعل كثافة حجم الحريم العباسي واتساع الفضاء المخصص له يجعلنا نتساءل عن تركيبته العرقية والاجتماعية وعن حظ كل من الحرائر والإماء الجواري في البلاط العباسي.

II- الحرم العباسي : تركيبته وانتماءاته العرقية والجغرافية

يجب أن نشير منذ البداية أن المقصود بـ "الحرائر" أو "المهائر" النساء الشريفات أي المنتميات إلى عائلات عربية كبرى²⁸ أما الجواري فالمراد بهن الحظايا أو السراري.

وقد مكنتنا العديد من المصادر من التعرف على "الحرم العباسي" وإبراز حظ كل من الحرائر والحظايا، وأهمها المصادر المختصة والتي اهتمت بتاريخ النساء مثل كتاب "نساء الخلفاء المسمّى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء". لابن الساعي والذي ترجم فيه لعدد من نساء الخلفاء العباسيين الحرائر والإماء. وكتاب "المستظرف من أخبار الجواري" للسيوطي ترجم فيه للعديد من جواري العباسيين. كما ألّف كتاباً آخر خصّصه للنساء الحرائر ويعرف بـ "نزهة الجلساء في أشعار النساء".

كذلك كتب الأدب أهمها كتب الجاحظ وخاصة منها رسائله فقد خصّص رسالة كاملة للحديث عن القيان. كما احتوى كتابه "المحاسن والأضداد" على معلومات فريدة عن نساء الخلفاء العباسيين لا نجدها في مصادر أخرى.

كذلك كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني الذي كان للمرأة نصيب وافر فيه فقد ترجم للعديد من سيّدات البلاط العباسي (حرائر وجواري).

كما أفادتنا كذلك كتب التاريخ العام في معرفة الحريم العباسي وأذكر هنا خاصة كتاب "المحبّر" لابن حبيب والذي أفادنا خاصة في معرفة علاقات التصاهر داخل العائلة المالكة العباسية.

27- المصدر السابق، ج 1، ص 94.

28- Sourdel (D.) et (J.), « Sharif », *op.cit.*, p. 750.

وفي كتاب "تاريخ الرسل والملوك" للطبري و"المنتظم" لابن الجوزي و"خلاصة الذهب المسبوك" للأربلي ذكر لنساء الخلفاء العباسيين وبناتهم.

كما اعتمدنا كتب الطبقات وأهمها كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي والذي ترجم فيه لعدد من نساء الأسرة العباسية.

لكن بالرغم من الأهمية التي تمثلها هذه المصادر في دراسة موضوع الحريم في العصر العباسي، فإنها قد أعطت مكاناً أوسع للقيان والجواري منه للنساء الحرّات وهو ما شكّل عائفاً أمامنا فلو أخذنا على سبيل المثال بنات الخلفاء العباسيين نجد أن جل هذه المصادر لا تعطينا ترجمة مفصلة إلا لعلية بنت المهدي. أمّا باقي بنات الخلفاء فقد اكتفت في الكثير من الأحيان بذكر أسمائهن وبعض الإشارات الخاطفة عنهن والتي تتعلق بزواجهن أو وفاتهن. ولعل ذلك يمكن تفسيره بالحجاب الذي فرض على النساء الحرّات، عكس الجواري والقيان اللاتي تميزن بتحرّرن.

لكن رغم ذلك فقد مكنتنا هذه المصادر من التعرف على تركيبة الحرم العباسي وإبراز انتماءاته العرقية والجغرافية.

الحرم العباسي من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المتوكل

المصادر	بناته	نساؤه			أسمائهن	الخليفة
		زوجة	انتاوهن القبلى أو الجغرافي	وضعتهن		
- المسعودي، مروج الذهب، ج 3 ص 261. - الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك، ص 53-59. - الأربلي، نفس المصدر، ص 55. - ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة 1965، ج 5، ص 114. - الطبري، تاريخ الرسل، ج 8، ص 102. - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 7، بيروت 1996، ص 333.	ربطة	زوجة	بنك يعقوب المخرومية	أم سلمة	ربطة بنت عبد المदान الحارثي	أبو العباس السفاح
		زوجة	حميرية	أم موسى		سلامة البربرية
		زوجة	من ولد طلحة بن عبيد الله التميمي	فاطمة		
	العالية	زوجة	من ولد خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية	-		
		زوجة	من أهل وادي القرى	أم علي		
		زوجة	كردية	صغيرة		
		أم ولد	رومية و يقال كذلك أنها ابنة ملك الصغد	فراشة		أبو جعفر المنصور

هارون الرشيد	الخيزران	زبيدة	بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور	زوجة	أم العباس	- ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 8، ص 319-320؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 107 - 112 - 170؛ الطبري، تاريخ ، ج 8، ص 121 - 134.
		أمة العزيز	-	زوجة كانت أم ولد لموسى أخيه		
موسى الهادي	الخيزران (أم ولد جرشية)	رحيم	-	م ولد		- الأربلي، نفس المصدر، ص 103-105؛ ابن الجوزي ، نفس المصدر، ج 8، ص 306-307؛ الطبري، نفس المصدر، ج 8، ص ؛ ابن حبيب، المحبر، ص 36.
		سعوف	-	م ولد	أم عيسى	
		حسنة	-	جارية	أم عيسى تزوجها المأمون	
		-	-	-	أم العباس	
المهدي	أم موسى (الحميرية)	الخيزران	جرشية	أم ولد ثم زوجة	البانوقة	- الأربلي، خلاصة الذهب، ص 91؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج 8، ص 121 - 134؛ ابن الجوزي ، نفس المصدر، ج 8، ص 229 - 239؛ الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 171.
		أم علي	*	أم ولد		
		الخيزران	جرشية	زوجة		
		ربطة	بنت أبي العباس السفاح	زوجة		
		أم عبد الله	بنت صالح بن علي	زوجة		
		رقية	بنت عمرو عثمانية	زوجة		
		رحيم	-	جارية	العباسة	
		شكلة	من سبي دنياوند و يقال من سبي طبرستان	أم ولد		
		مكونة	من جوارى المروانية المغنية	جارية	عليه	
		ليابة	بنت جعفر بن المنصور	زوجة		
		أمة العزيز	-	م ولد		
		رحيم	-	م ولد		
		سعوف	-	م ولد		
		حسنة	-	جارية	أم عيسى	
		-	-	-	أم العباس	

			بنيت سليمان بن المنصور	عباسة	
			بنيت صالح المسكين	أم محمد	
			اينة خاله العطريف	عزيزة	
			جرشية عثمانية	-	
			باديسية (فارسية)	مراجل	
	سكينة	أم ولد	-	قصف	
	أم حبيب	أم ولد	كوفية	ماردة	
		أم ولد	-	رنم	
	أم الحسن	أم ولد	-	عراية	
		أم ولد	-	شجرة	
		أم ولد	-	خبث	
		أم ولد	-	رواح	
		أم ولد	-	لواج	
	خديجة	أم ولد	-	شجر	
		أم ولد	-	كتمان	
	أروى	أم ولد	-	حلوب	
	أم محمد وهي حمدونة	جارية	-	-	
	فاطمة	جارية	-	غصص	
	أم سلمة	جارية	-	رجيق	
	أم القاسم	جارية	-	حزق	
	رملة (أم جعفر)	جارية	-	حلي	
	أم علي	جارية	-	أنيق	
	الغالية	جارية	-	سمنل	

يتضح من خلال هذه الجداول التي قدّمتها لنا المصادر أن الحرم العباسي كان يضمّ نساء الخلفاء العباسيين (زوجات، جوارى وأمّهات أولاد) كما يضمّ كذلك بناتهم، واللاتي يمكن أن نطلق عليهنّ اسم "العباسيات". ويضمّ أيضا أمهاتهم.

1- نساء الخلفاء العباسيين

بالنسبة لنساء الخلفاء العباسيين يمكن التمييز بين صنفين اثنين (الزوجات) و(الحظايا أو السراري).

الزوجات

يمكن القول أن الزواج داخل العائلة الحاكمة العباسية كان يجمع عدة أنواع منها "الزواج القرابي" *mariage endogame* ومنها "الزواج غير القرابي" *mariage exogame*.

ونقصد بالزواج القرابي كل زواج من القرابة مهما بعدت درجة القرابة، كالزواج من ابنة العم والزواج من ابن الخال، إضافة إلى الزواج من باقي قريبات الأب والأم مثل بنت العمّة وبنت الخالة وغيرها.

وأكثر زواج من القرابة انتشارا في البلاط العباسي هو الزواج من ابنة العم وهنا لابد أن نشير إلى قدم هذه الظاهرة التي تعود إلى فترة ما قبل الإسلام²⁹ كما وجدت هذه الظاهرة كذلك انتشارا لدى الأمويين وكذلك لدى العلويين³⁰ وفي العهد العباسي سعى كذلك الخلفاء العباسيون إلى إبرام عقود زواج تربط بينهم وبين بنات عمهم. والأمثلة على ذلك عديدة، مثلما تدلّ على ذلك الجداول التي قدّمناها. فقد تزوج الخليفة المهدي ربيعة ابنة عمه أبي العباس السفاح وتزوج الهادي من لبابة ابنة عمه جعفر بن المنصور وهي أخت زبيدة.

وتكرّرت عملية الزواج من ابنة العم في البلاط العباسي في عهد الخليفة الرشيد الذي تزوّج من زبيدة ابنة عمه جعفر وكذلك من أم محمد ابنة عمه صالح المسكين.

Chelhod (J.), «Le mariage avec la cousine parallèle dans le système arabe» in -29 *l'Homme*, juillet-décembre 1965, p. 115.

Ibid., p. 138. -30

كما صاهر كذلك الخليفة الأمين عمه علي بتزوجه من لبابة ابنته لكنه قتل قبل أن يدخل بها. وتزوج الخليفة المأمون أم عيسى ابنة عمه الخليفة الهادي. وتزوج الواثق أسماء ابنة عمه المأمون لكنه لم يدخل بها. وصاهر كذلك أخوه المتوكل عمه المأمون بتزوجه من نامية ابنته.³¹

نستنتج إذن أن الخلفاء العباسيين سعوا شأنهم شأن سائر الخلفاء والملوك والأسر العريقة والشريفة إلى إبرام عقود زواج تجمع بين ابن العم وابنة العم، وذلك اتباعا لتقليد اجتماعي وتحقيقا لمصالح سياسية بالإضافة إلى الرغبة في تحقيق وحدة العائلة المالكة العباسية وتماسكها.

بالإضافة إلى الزواج من بنات العم هناك الزواج بين العباسيين وعائلات أخرى. وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم الزواج غير القرابي. وهو يرتبط في المجتمعات العربية الإسلامية بأسباب سياسية واقتصادية³².

وقد اشترط العباسيون في هذا الزواج أن تكون المرأة ذات أصل شريف وأن تنتمي إلى عائلة ميسورة. فقد ذكر الأربلي أن الرشيد قبل زواجه من زبيدة وقعت في قلبه امرأة خسيصة فتزوجها إلا أنه اضطر إلى ترك زواجه في السر.³³

وكأمثلة من الزواج غير القرابي في العصر العباسي نذكر زواج السفاح من أم سلمة المخزومية. كما تزوج المنصور كذلك من أم موسى بنت منصور الحميرية وقد قرب أفراد عشيرتها ومنحهم العديد من الامتيازات. وتزوج أيضا من فاطمة بنت محمد الطلحية من ولد طلحة بن عبيد الله التميمي وتزوج كذلك بامرأة من بني أمية أم ولد خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية. وتزوج المهدي من رقية بنت عمرو العثمانية وتزوج الرشيد بالجرشية العثمانية من ولد من أولاد عثمان بن عفان (انظر الجداول).

كما صاهر المأمون وزيره الحسن بن سهل فتزوج من ابنته بوران، ويقال أنه تزوجها لمكان أبيها منه.³⁴

31- انظر الجداول ؛ ابن حبيب، المحبر، ص 61-62.

32- Bianquis (TH.), " La famille en islam ", in *Histoire de la famille*, Paris, 1986, p 570.

33- الأربلي، خلاصة الذهب، ص 138.

34- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت 1971، ج 2، ص 287.

ومن الخلفاء العباسيين من تزوجوا بأمهات أولادهم وقد تكرّرت هذه العملية مرتين في البلاط العباسي الأولى في عهد الخليفة المهدي حيث تذكر المصادر أنه تزوج من أم ولده الخيزران وقد تزوجها بعد أن ولدت له ولديه موسى وهارون وبعد أن أعتقها.³⁵ وعملية العتق هنا ضرورية وهي تعود إلى الشروط الثقيلة التي فرضت على زواج الحرّ بالأمّة وقد لخصّها توفيق بن عامر في عجزه عن الزواج بحرّة وخوفه على نفسه من العنت كما حرم عليه أن ينكح الأمّة بعد زواجه بالحرّة أي أن يجمع بينهما واشترط كذلك أن تكون الأمّة مسلمة لذلك فهو يرى من الضروري أن تبعث هذه القيود الراغبين في نكاح الإماء على السعي إلى تحريرهن قبل الزواج منهن.³⁶ وهو ما حصل مع الخيزران.

أما الثانية فقد حصلت في عهد الخليفة الرشيد حيث تشير المصادر إلى زواجه من أمة العزيز أم ولد أخيه موسى الهادي. وهي التي حلف لأخيه بأن لا يتزوجها لكن بعد وفاته كفر عن يمينه بأن حج راجلا وتزوجها.³⁷

وعدى هذين المثالين لا تشير المصادر إلى زواج الخلفاء العباسيين من أمهات أولادهم.

نستنتج إذن أن الخلفاء العباسيين سعوا إلى ربط علاقات تصاهر بينهم كما صاهروا عددا من الأسر العربية الشريفة من عائلة حمير، محزوم وتميم. ولعل هذا لا ينطبق مع ما أكدته بعض الدراسات الاستشراقية التي ترى أن الخلفاء العباسيين "لا يهتمون بالأورمة والنسب فيما يتعلق بنسائهم".³⁸ وأن الخليفة العباسي "لا يتزوج نساء عربيات إنما هو يغرف ما يشاء مما ملكته يمينه من الجواري والإماء".³⁹

فمن خلال الأمثلة التي قدّمناها نجد أن هذه الآراء لا تتماشى وواقع الخلفاء العباسيين على الأقل خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها أي من عهد

35- الطبري، تاريخ، ج 8، ص 35.

36- بن عامر توفيق، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة تونس 1990، ج 1، ص 221-222.

37- ابن الساعي، جهات الأمّة الخلفاء من الحرائر والإماء، دار المعارف مصر د ت، ص 45-46.

38- فلهوزن، الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ص 530.

39- كلود (كاهن)، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية...، ص 63.

الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المتوكل. فقد تزوج الكثير من الخلفاء العباسيين سيّدات عباسيات كما تزوجوا كذلك سيّدات ينتمين إلى أسر عربية شريفة.

كما نتبين كذلك ظاهرة تعدّد الزوجات داخل العائلة المالكة العباسية. فقد كان الخلفاء العباسيون يجمعون بالنسبة للواحد منهم أكثر من زوجة واحدة. حيث تذكر المصادر أن الرشيد توفي عن أربع حرائر وهن أم جعفر، أم محمد، عباسية والعثمانية.⁴⁰

لكن من الخلفاء العباسيين من اكتفى بزوجة واحدة وآثر التسري بالجواري والإماء. وهو ما يدفعنا للحديث عن الصنف الثاني من نساء الخلفاء العباسيين.

السراري أو الحظايا

فقد كان الخليفة في العهد العباسي الأول يتزوج بأكثر من زوجة واحدة أو قد يتسرّى كذلك من ينجب له أولاداً. وهو ما أقرّه الإسلام الذي أجاز التسري بملك اليمين.⁴¹

وقد استعملت المصادر كلمات عديدة للدلالة على السراري أو الحظايا في العصر العباسي حيث نجد كلمة "جارية" ونجد كلمة "أمة" ونجد كلمة "سرية". كما تستعمل المصادر كلمة "أم ولد" للدلالة على الجارية المنجبة. وهن ينتمين إلى أصول مختلفة حيث نجد الروميات مثل فراشة أم صالح المسكين ابن الخليفة المنصور وقراطيس أم الخليفة الواثق. ونجد كذلك التركيات مثل ماردة أم الخليفة المعتصم وشجاع أم الخليفة المتوكل. وهناك الفارسية وهي مراجل أم الخليفة المأمون. وهناك من اقتصرت المصادر على ذكر أسمائهن دون الإشارة إلى أصولهن مثل رحيمة جارية الخليفة الهادي وأم ولده جعفر الذي كان يرشحه للخلافة.⁴² وسعوف أم ولده العباس وقصف جارية الخليفة الرشيد

40- ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، بيروت 1996، ص 319.

41- Bianquis (Th.) « La famille en islam », *op.cit.*, p. 571.

42- اليعقوبي، تاريخ، بيروت 1960، ج 2، ص 395.

وأم ولده المؤتمن الذي كان عينه ولبا للعهد بعد المأمون.⁴³ والأمثلة على ذلك كثيرة خلال العصر العباسي الأول.⁴⁴

وعادة ما تحمل هذه الجواري أسماء ليست بأسمائهن الأصلية وإنما هي أسماء تتماشى إلى حد بعيد وصفاتها الخلقية وتحمل في معظمها معاني الجمال والمحبة وتعبير عن مشاعر وأحاسيس من أطلقها مثل قراطيس، أنيق، شجاع، سمندل، زينة... وتظل هذه الجواري تحمل هذه الأسماء إلى أن ينجبن ولدا ذكرا، فيصبحن بذلك أمهات أولاد ويتميزن عن اللاتي لا أبناء لهن أو اللاتي أنجبن بنات، ذلك أنه لو كان بالإمكان التخلص من الجارية بالبيع أو الإهداء فإنه لا يمكن فعل ذلك مع أم الولد.⁴⁵ فيتغير بذلك وضعهن ويحررن لأنهن أنجبن إلى الوجود شخصا حرّا.⁴⁶ ومن ثمة تصبح تحمل اسم ابنها الأكبر أو اسم ابنها الذي أصبح خليفة فتصبح أم الخليفة وأم الواثق وأم المتوكل. أما التي لا تتجب ولدا ذكرا فإنها تحتفظ بالاسم الذي يربطها بسيدها مثل هيلانة جارية الرشيد.⁴⁷

لكن بالرغم من الأهمية المميزة التي حظيت بها أمهات الأولاد على المستوى القانوني والاجتماعي مقارنة بسائر الحظايا والسراري فإنه لا يمكن لهن بأي حال من الأحوال أن يصبحن مهائر أو حرائر على غرار النساء العربيات أو المسلمات فهن عبيد محررين بحكم أمومتهم الذكورية "maternité masculine" فهن لم يعدن روميات لكن كذلك لا يمكن لهن أن يصبحن عربيات، فهن جواري الخليفة وأمهات أولاده.⁴⁸

وجلّ الحظايا المقيّمات في الحرم العباسي يشتريّن من أسواق الرقيق أو يهديّن إلى الخليفة من قبل أهل بيته (أقاربه وفي بعض الأحيان زوجته) وبعض رجال بلاطه الراغبين في التقرب إليه.⁴⁹

43- الطبري، المصدر السابق، ج 8، ص 276.

44- انظر الجداول.

45- Mansouri (M.T.), Les femmes d'origine byzantine / les roumiyyat sous les abbassides : Une approche onomastique, *Journal of Oriental and African Studies*, v 11 (2000-2002), p. 178-179.

46- Bianquis (TH.), " La famille en islam ", *op.cit.*, p. 572.

47- Mansouri (M.T.), « Les femmes d'origine byzantine / les roumiyyat sous les abbassides », *op.cit.*, p. 179-180.

Ibid., p. 181-182.

49- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 178.

وإن كان يشترط بالنسبة للمرأة الحرة أن تكون ذات أصل شريف وأن تنتمي إلى قبيلة عريقة فإنه يشترط في الجارية أن تكون لا أهل ولا أقارب لها حيث يذكر الجاحظ أن الخيزران لما عرضت على المنصور في سوق الرقيق سألها عن أهلها فادعت كذباً بأن لا أهل لها فأعجبه ذلك واشتراها وأرسلها للمهدي.⁵⁰

كما يشترط في الجارية كذلك الجمال، وقد فضلها العباسيون وكذلك الأمويون لمساء مشدودة.⁵¹

وإضافة إلى ذلك فإنه يشترط فيها أن تكون ذات علم وأدب، ذلك أن علم الجارية وأدبها كان يقوم في سوق الرقيق بأكثر مما يقوم بدنها.⁵²

إضافة إلى ما ذكرنا يضم الحرم العباسي أيضاً :

2- بنات الخلفاء العباسيين

وهن من الحرائر بالرغم من انتماء أمهاتهن إلى فئة الجواري، وذلك بحكم انتسابهن الأبوي : فهن بنات الخليفة. وقد حملن أسماء تختلف عن أسماء أمهاتهن، وفي الكثير من الأحيان هي أسماء مستوحاة من التاريخ الإسلامي وتحمل دلالة دينية مثل أمينة أم الرسول وقد حملته إحدى بنات المأمون. وخديجة زوجة الرسول وقد حملته كذلك بنت المأمون. وعائشة زوجة الرسول وقد سميت به أيضاً بنت المأمون. وفاطمة بنت الرسول وقد سميت به كذلك إحدى بنات المنصور.

كما سمى الخليفة العباس ابنته ربيعة على اسم أمه ربيعة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية. وأطلق المهدي اسم العباسية على إحدى بناته، وهو تأنيث لاسم العباس الجد الأعلى للعباسيين.

وقد اشتهرت أغلب بنات الخلفاء العباسيين خاصة بكنيتن، إذ حملن في الكثير من الأحيان اسم ولدهن الأكبر. إذ نجد أم عيسى وأم العباس وهن بنات الخليفة الهادي وأم حبيب وأم الحسن وهن بنات الخليفة الرشيد وظاهرة الكنى هذه قديمة وقد ابتدعها العرب القدامى تعبر عن صلة القرابة بين أب وابنه أو

50- الجاحظ، نفس المصدر، ص 117.

51- بوحديبة (عبد الوهاب)، الجنسية في الإسلام، تونس 2000، ص 179.

52- بوحديبة (عبد الوهاب)، نفس المرجع، ص 136.

بين أم وولدها، فيقال أبو الحسن وأم محمد وقد توالّت في الإسلام فمن النساء من عرفن فقط بكنيتهن.⁵³

ولم يعتمد الخلفاء العباسيون فقط إلى إعطاء بناتهم أسماء ترجع إلى شخصيات شريفة بل سعوا كذلك إلى تزويجهم من إحدى رجالات الأسرة العباسية. فقد زوّج الخليفة المنصور ابنته فاطمة يحي بن جعفر بن تَمّام بن العباس بن عبد المطلب، والعالية زوّجها إسحاق بن عيسى بن علي. وتزوجت العباسة بنت المهدي من محمد بن سليمان بن علي. وزوّج الرشيد ابنته حمدونة من جعفر بن موسى وفاطمة زوّجها إسماعيل بن موسى.

كما زوّج المأمون ابنته أم حبيب من علي بن موسى الرضا. وتزوجت فاطمة ابنة الواثق من عبد الله محمد بن المعتصم.⁵⁴

نستنتج إذن أن أغلب بنات الخلفاء العباسيين تزوجن رجالا من الأسرة العباسية. ولعل هذا يرتبط بتقاليد تتعلق بالأسرة العربية الإسلامية عموما، ذلك أن كل عائلة تحتل مكانة اجتماعية مميزة فهي ترفض تزويج بناتها خارج الدائرة الأسرية.⁵⁵ وهكذا فإن سعي الخلفاء العباسيين تزويج بناتهم رجالا من الأسرة العباسية يعبر عن تسامي الأسرة المالكة العباسية واعتدادها بنسبها ورفضها مصاهرة أفراد الرعية.

وقد ساهمت بنات الخلفاء العباسيين في مضاعفة حجم النساء الحرائر في الحرم العباسي لا سيما وإن افترضنا أن أغلب جواري الخليفة قد أنجبن له بنات.

وبالإضافة إلى نساء وبنات الخلفاء يضم الحرم العباسي أمهاتهم.

3- أمهات الخلفاء العباسيين

أغلبهن من الجواري والإماء. فالمنصور ابن أمة بربرية تدعى سلامة، وهارون الرشيد وموسى الهادي أمهما أم ولد يقال له الخيزران، والمأمون ابن أمة فارسية تدعى مراحل، والمعتصم ابن أمة تسمى ماردة من مولدات الكوفة،

53- Schimmel (A.), *Noms de personne en Islam*, Paris, 1998, p. 70 ; Sublet (J.), *Le voile du nom*, Paris, 1991, p. 116.

54- ابن حبيب، المحبر، بيروت، دت، ص 60-62.

55- Bianquis.(Th.), " La famille en islam ", *op.cit.*, p. 564.

والوائق أمه أم ولد روية تدعى قراطيس وأخيراً المتوكل أمه أم ولد تركية تدعى شجاع. وهكذا فعدي السفاح وأمّه ربيعة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية والمهدي وأمّه أم موسى الحميرية والأمين وأمّه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور لم يكن يعرف من الخلفاء من أمّه عربية حرة. أي ثلاثة خلفاء على عشرة.

لكن وصول أبناء الجوّاري إلى الحكم لا يعني حتماً أن الخلفاء العباسيين لا يهتمون بالنسب والشرف فيما يتعلق بنسائهم فمثلاً بيتنا ذلك من خلال دراستنا لتركيبة الحرم العباسي، فقد كانت زوجات الخلفاء وإذا استثنينا البعض منهن كلّهن عربيات. إذ سعى الخلفاء العباسيون إلى إبرام عقود زواج تربط بين ابن العم وبنت العم كما سعوا إلى مصاهرة عدداً من الأسر العربية الشريفة مثل عائلة حمير، مخزوم وتميم... كما حرصوا على تزويج بناتهم رجالاً من الأسرة العباسية.

لكن التفوق العددي لفئة الجوّاري في الحرم العباسي ووصول أبنائهم إلى الحكم يجعلنا نطرح إشكالية هامة تتعلق بدور المرأة في الحكم وبصفة أوضح دور الشرف في تحديد مكانة المرأة في البلاط العباسي ؟

III- الشرف ودوره في تحديد مكانة المرأة في البلاط العباسي

دور نسب الأم في تولية الخليفة العباسي الحكم

إن الواضح من خلال دراستنا لأمهات الخلفاء العباسيين هو تراجع دور نسب الأم في وصول الخليفة العباسي إلى الحكم، إذ أن أغلب الخلفاء كانوا من أبناء الجوّاري. وهو ما يدفعنا للتساؤل لا سيما وأنه يمثل تحولا هاما مقارنة مع ما كان موجودا في الجاهلية وفترة الإسلام الأولى، إذ كانت العرب تولي أهمية كبرى للانتساب الأمومي وترفض من كانت أمّه أمة أو حتى من أرضعته أمة، فالرجل الشريف بالنسبة لهم هو من كان له أخوال لا عيب فيهم وهو ما لا يمكن تحقيقه بالنسبة للزواج الرقي⁵⁶ وقد تواصل هذا المفهوم الأرسطراطي في

56- Lamens (H.), "L'importance de la condition maternelle. Ni esclave ni prisonnière de guerre", dans *le Berceau de l'Islam*, v. I, Romae 1917, pp. 296-297.

النسب في عهد بني أمية الذين حرّموا الكثير من أولاد الإماء مثل مسلمة بن عبد الملك رغم مقدّرتّه.⁵⁷

بالنسبة للعصر العباسي يمكن تفسير تراجع دور نسب الأم في تولية الخليفة الحكم بالرجوع إلى الثورة العباسية ذاتها. ذلك أنه من بين الشعارات التي نادى بها الثورة العباسية هو "أحقية آل البيت بالخلافة"⁵⁸ والذي يكشف لنا عن إدراك العباسيين لحقيقة هامة تتمثل في كونهم وإن كانوا متساوين مع العلويين في مواجهتهم لبني أمية على مستوى النسب، فإن هناك عنصر هام لا بد من أخذه بعين الاعتبار يتمثل في فاطمة بنت محمد. ذلك أنه ما يميّز الفرع العلوي عن العباسي هو أنه لا ينتمي فقط لعائلة الرسول بل يبدو كذلك في صورة الوارث لثراث محمد بواسطة فاطمة.

ولذلك حاول العباسيون الدخول بمفهوم آخر في النسب يتمثل في التأكيد على أهمية الانتساب الأبوي والذي تجلّى لنا بوضوح في المراسلات التي تمت بين الخليفة المنصور ومحمد النفس الزكية. ففي حين أكد الفرع العلوي على شمولية النسب عن طريق النساء والرجال في الوصول إلى الحكم أكد الفرع العباسي على أهمية الوراثة عن طريق الرجال وعلى ثانوية النساء في الوراثة.⁵⁹

وهكذا فإن وصول أبناء الجوّاري الحكم لا يعني عدم اهتمام العباسيين بالنسب والشرف فيما يتعلق بنسائهم بل يعد تمشياً مع الإيديولوجيا العباسية التي تؤكد ثانوية الوراثة عن طريق النساء وذلك في إطار الصراع على الشرعية مع العلويين.

لكن ولئن لم يلعب نسب الأم دوراً كبيراً في تولية الخليفة العباسي الحكم فقد أكسبها مكانة مميزة جعلتها تتدخل في شؤون الحكم وتؤثر في قرارات الخلفاء الاجتماعية، السياسية وحتى الإيديولوجية.

فقد استغلت أم موسى الحميرية نسبها واشترطت على الخليفة المنصور ألا يتزوج عليها ولا يتسرى في حياتها وكتبت عليه بذلك كتاباً وأشهدت عليه شهوداً وكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه ليفتيه برخصة فإذا علمت أم موسى

57- عمر (فاروق)، بحوث في التاريخ العباسي، بيروت 1977، ص 106.

58- مؤلف مجهول، أخبار العباس وولده، بيروت 1971، ص 194.

59- الطبري، تاريخ، ج 7، ص 567-570.

أرسلت إلى ذلك الفقيه بمال فلا يفتيه وقد ظلّ على تلك الحالة حتى توفيت بعد عشر سنين من خلافته.⁶⁰

وكان لريطة تأثير كبير على زوجها المهدي وكان لا يردّ لها طلبا، فقد روى صاحب الأغاني أن المهدي ألزم أبا دلّامة الشاعر قيام شهر رمضان فشق عليه ذلك وفزع إلى الخيزران وأبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له عنده، فلم يجبه ففصحوه بريطة لأنه لا يرد لها طلب، فكتب إليها يستشفعها، فشفعت له وأعفاه المهدي.⁶¹

وقد استغلت كذلك زبيدة نسبها وموقعها في البلاط، فالمنصور جدّها والمهدي عمّها والرشيد زوجها وأثرت على الرشيد حتى ولّى ابنها العهد رغم أنه لا يصلح للخلافة. فقد ذكر الرشيد "إني لا أعرف في عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعزة الهادي ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع - يعني نفسه - لا نسبته وقد قدمت محمدا عليه وإني لا أعلم أنه منقاد إلى هواه مبذر لما حوته يده يشاركه في رأيه الإماء والنساء ولولا أم جعفر وميل بنو هاشم لا قدمت عبد الله عليه".⁶²

وكانت زينب بنت سليمان معاصرة للخيزران ولعبت دورا بارزا في الحياة السياسية في ذلك العهد. فقد كانت أكثر سيدات البلاط العباسي تقديرا طيلة حياتها وكانت المسؤولة على مراقبة الطقوس والقواعد الخاصة بالبلاط كما كانت محل استشارة من قبل سبعة خلفاء. وكان الخليفة المأمون قد ترك لباس آبائه من السواد ولبس الخضرة مما أثار استياء أهل بغداد وبني العباس، فكانت هي من حملة على ترك الخضرة والعودة إلى السواد.⁶³

نلاحظ إذن أن المرأة الحرة في العصر العباسي استطاعت أن تكون على دراية وعلم بكل الأحداث التي تدور في البلاط رغم الحجاب الذي فرض عليها.

لكن إلى جانب الشرف لا بد أن نشير إلى بروز عامل آخر هام كان له دور في تبوء المرأة مكانة مميزة في البلاط العباسي وهو "الحب" وقد حظيت به

60- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 117.

61- الأصبهاني، الأغاني، ج. 22، ص 248-249.

62- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 285.

63- Heitty (A.), "The contrasting spheres of free women and jawari in the literary life of the early Abbasid caliphate", in *AL- Mashaq*, v. III, 1990, p. 33.

أساساً فئة الجوّاري. والأمثلة على ذلك عديدة خلال عصر العباسي الأول نذكر منها خاصة : حب المهدي للخيزران الذي أكسبها حظوة كبيرة في البلاط رغم أصلها المتواضع وجعلها تتدخل في شؤون الحكم. فقد دفعت المهدي لتولية ولديها موسى وهارون الحكم وتفضيلهما على ولديه علي وعبيد الله ابني ربيعة بنت أبي العباس السفاح أول خليفة عباسي.⁶⁴

وكان الرشيد محباً لجاريته ذات الخال فحلف لها يوماً ألا تسأله شيئاً إلا قضاءها لها " فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل ذلك وكتب له عهداً به وشرط على ولي العهد بعده أن يتممها له إن لم تتم في حياته.⁶⁵ وكان المأمون يعشق عريب ولا يرفض لها طلباً. فقد ذكر صاحب الأغاني أن إبراهيم بن المدبر لما سجن سألت عريب المأمون في إخراجه فوعدها بما تحب.⁶⁶

وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه خلافاً للبلاطات الأوروبية التي اقترن فيها ازدهار الحب في العصر الوسيط بتحسّن وضعيّة المرأة الأرستقراطية فإن النساء المهائز في العصر العباسي قد أقصين عن دائرة الحب لفائدة السراري اللاتي كنّ محل حب كبير من قبل الخليفة.⁶⁷

لكن لا بد أن نشير هنا إلى أنه من النساء المهائز كذلك من حظين بحب الخلفاء العباسيين وأذكر هنا خاصة أم سلمة المخزومية التي كانت حظيّة لدى الخليفة السفاح إلى درجة أنه حلف أن لا يتزوج ولا يتسرى في حياتها.⁶⁸

وكان الرشيد يحب زبيدة إلى درجة أنه فكر في التنحي عن الخلافة والخلو بها. فقد ذكر «...إذا نزلت على الهنا والمرى وخلوت بابنة عمّي...فما أريد شيئاً».⁶⁹

ومما لا شك فيه أنه لم يكن للحرائر نصيباً كبيراً في الحب في ذلك العصر، نتيجة الحجاب الذي فرض عليهن والذي أدّى إلى إبعادهن عن

64- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 14، ص 431.

65- الأصبهاني، الأغاني، ج 10، ص 230.

66- الأصبهاني، الأغاني، ج 16، ص 343.

67- Algazi (G.) et Drory (R.), «L'amour à la cour des abbassides un code de compétence sociale», *op.cit.*, n° 1, p. 1272.

68- المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 275.

69- الجهشاري، الوزراء والكتاب، القاهرة دت، ص 169-170.

الأعين، مما فسح المجال للجواري وأمهات الأولاد لاكتساب مزيداً من الخطوة والحب لدى الخلفاء العباسيين، ومزيداً من النقاط ضدّ الحرائر في إطار سباقهن نحو كسب أعلى ما يمكن من درجات الحب لدى الخليفة، ولو أن من الحرائر من حظين كذلك بحبه.

وإلى جانب عامل الشرف والحب في تحديد مكانة المرأة في البلاط لا بد أن نشير إلى عامل آخر هو الأدب والغناء وقد اشتهرت به خاصة فئة الجواري. فلم يكن الخلفاء ليدفعوا في الجواري الأثمان الباهضة لمجرد الجمال وإنما اشترطوا فيهن كذلك المهارة والموهبة في مجالات الشعر والأدب. والأمثلة على ذلك كثيرة خلال العصر العباسي الأول. فقد جمعت عريب المأمونية بين الغناء والشعر. وكانت فضل الشاعرة اليمامية جارية المتوكل مطبوعة في الشعر وكانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تناظر الشعراء⁷⁰ والأمثلة على ذلك كثيرة خلال العصر العباسي.

لكن الأدب في البلاط العباسي لم يكن حكراً فقط على الجواري فقد استطاعت كذلك بعض الحرائر - رغم ما فرض عليهن من -حجاب- أن تتبوأ منزلة لا يستهان بها. ونذكر هنا خاصة عليّة بنت المهدي فقد كانت تنظم الشعر وتراسل بالشعر من تحب. وكانت خديجة بنت المأمون أديبة وشاعرة وكذلك عائشة بنت الخليفة المعتصم.⁷¹

نلاحظ إذن بروز عوامل جديدة تتمثل في "الحب" والغناء والأدب إلى جانب عامل الشرف، مكّنت المرأة الأمة سواء كانت جارية أو أم ولد من تبوء مكانة مميزة في البلاط العباسي، وحدّت بصفة كبيرة من شروط استعبادها. وفي بعض الأحيان أصبحت الأمة تتمتع بمكانة موازية أو حتى أفضل من مكانة المرأة الحرة ويرتبط ذلك بمدى قربها من الخليفة ومدى تأثيرها عليه. وبذلك استطاعت الجارية أن تلعب دور المرأة "الدخيلة" في البلاط العباسي ونجحت فيه إلى حد بعيد وذلك بالرغم من أصلها المتواضع.

70- ابن الساعي، جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، مصر د-ت، ص 55- 85 ؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 57.

71- السيوطي (جلال الدين)، نزهة الجلساء في أشعار النساء، بيروت، 1958، ص 54- 69 ؛ الأصبهاني، الأغاني، ج 21، ص 91.

الخاتمة

من خلال ما تعرضنا إليه من معطيات تهّم مسألة الشرف والمرأة في البلاط العباسي يمكننا إبداء الملاحظات التالية :

- أولاً : نستنتج حرص الخلفاء العباسيين على اختيار زوجاتهم من ذوي البيوتات الشريفة والعريقة في النسب وكذلك حرصهم على تزويج بناتهم رجالاً من الأسرة العباسية. وبالتالي فإن وصول أبناء الجوّاري إلى الحكم لا يعود إلى عدم اهتمام الخلفاء بالأورمة والنسب فيما يتعلق بنسائهم بل يدخل في إطار صراع إيديولوجي بين العلويين والعباسيين. فمن أجل كسب مزيد من الشرعية حاول العباسيون التأكيد على ثانوية المرأة في الوراثة.

- ثانياً : ففي حين استغلت المرأة الحرّة شرفها ومكانتها لتلعب دوراً سياسياً وتؤثر في الأحداث السياسية في البلاط استغلت الجوّاري، مهارتهن في فن الشعر والأدب والغزل فاكترسبن بذلك حبّ الخليفة مما أتاح لهن فرصة التدخل في شؤون الحكم واحتلال مكانة مميزة في البلاط أصبحت تساوي أحياناً أو تفوق مكانة المرأة الحرّة. ومن ثمة أصبح الصراع عنيفاً داخل الحرم العباسي. وقد تحول هذا الصراع في بعض الأحيان إلى صراع بين القوميات مثل الصراع بين العرب والفرس والذي تجلّى في الصراع بين الأمين والمأمون وكذلك في دخول الأتراك.

- ثالثاً : أدّت الإيديولوجيا التي اتبعتها العباسيون والمتمثلة في - ثانوية المرأة على مستوى النسب - إلى وصول أبناء الجوّاري إلى الحكم كما أدّت كذلك إلى دخول عناصر جديدة فارسية وتركية إلى البلاط العباسي لعبت دوراً هاماً أدّى في الكثير من الأحيان إلى تراجع دور العرب. لكن هل يوجد في المصادر ما يفيد فعلاً أن المرأة كان لها دور كذلك في دخول المراسم والآداب الفارسية والبيزنطية إلى البلاط العباسي ؟

